ذلك يوم ولدت فيه

د . محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد فيا أيها المسلمون يقول الله تعالى في كتابه الكريم عن نبيه المصطفى ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ويقول جلَّ شأنه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ ويقول الله تعالى في حق نبيه ﷺ:﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال النبي ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» وروى مسلم عن أبي قتادة ض أن النبي ﷺ سئل عن يوم الاثنين فقال: «ذلك يوم ولدت فيه، ويوم أنزل علي فيه »

أيها المسلمون، نحن على مشارف شهر ربيع الأنور الذي ولد فيه سيد الكائنات ﷺ، فأشرقت بولادته الدنيا هداية ورحمة وضياء وخيراً. وشمس النبوة نعم أشرقت، ولكنها لن تغيب؛ ستبقى ساطعة إلى يوم القيامة ويبقى نوره ﷺ منتشراً يتألق في آفاق الأرض إلى أن تقوم الساعة، وستظل قلوب الناس تستقبل أنوار رسالته ما بقيت شمس الكون تشرق وتغيب، ولقد بشر النبي ﷺ فقال: «سيبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار» أجل وقد بلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، والحديث عن ذكراه ﷺ طويل قد يمتد لأسابيع، ولكنني سأقف في هذه المرة عند بعض النقاط، أولها هذا الجدل العقيم الذي يثار حول مشروعية الاحتفال بذكرى مولد المصطفى ﷺ؛ أناس خلا وقتهم من المسؤوليات وخلا ذهنهم عن الاهتمامات وانشغلوا بالطامة الكبرى – بالنسبة لهم طبعاً – وهي قصة احتفالنا نحن بمولده ﷺ، طبعاً نقول لهؤلاء: سنحتفل وسنحتفل لا عناداً وإنما إيماناً بأن احتفالنا بمولده ﷺ أمر مشروع ومطلوب، فإن ضاقت صدوركم فذلك شأنكم، لأن موقفكم من النبي ﷺ قد تجلى لنا في كثير من تصرفاتكم، لكننا لن

ننطلق من ردود الفعل، سنبحث الموضوع بطريقة علمية. النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: ذلك يوم فيه ولدت، النبي ﷺ لم يحتفل بمولده سنوياً بل احتفل بمولده أسبوعياً، ربط بين نعمة إكرام الله البشرية بمولده في يوم الاثنين وبين صيامه فيه، ثم إن مسألة ربط الأحداث التاريخية بمدلولاته والوقوف عند المحطات التاريخية أمر موجود في شرعنا، ألم يصم النبي ﷺ يوم عاشوراء؟ وأوضح سبب ذلك عندما بيّن أنه أولى بموسى من بني اسرائيل، لأن يوم عاشوراء هو اليوم الذي نجى الله فيه موسى وقومه من فرعون، فصامه وأمر بصيامه، إذاً المحطات الزمانية والمحطات المكانية لها في ديننا أهمية ينبغي أن نقف عندها. وعجيب أن هؤلاء الذين ينكرون علينا احتفالنا بمولده ﷺ يحددون يوماً لهم يسمونه اليوم الوطني، ثم ينكرون علينا نحن أن نجعل لذكرى إشراق الدنيا بميلاده ﷺ مناسبة نجدد فيها العهد مع رسول الله ﷺ على اتباعه والتزام هديه والتمسك بسنته، ولو سألنا هؤلاء الغوغاء ترى ماذا نفعل بمولد النبي عليه الصلاة والسلام ؟! وما وجه الخطأ فيه؟ أبيات ينشدها منشد تحضنا على محبته واتباع سنته، وتتضمن ذكر شمائله، كلمة يرشدنا فيها المتحدث إلى كثير من مآثره وسيرته العطرة ﷺ ويحضنا على التزام هديه، أفي هذا منكر؟ وفي تلك القنوات التي يطلقونها من بلادهم والتي تثير النزوات والفساد الأخلاقي هذا مشروع ليس فيه منكر – روتانا وام بي سي – وغير ذلك، هذه كلها مشروعة تبارك من الأسرة المالكة عندهم، أمر عجيب أن ينكروا علينا أن نحتفل بذكرى محمد ﷺ ثم يسكتون عن منكراتهم ونشرهم الموبقات في الدنيا عبر فضائياتهم، كثير من الأمور تثير فينا الاستنكار لما هم يفعلونه. أحيوا ذكرى لشيخهم محمد بن عبد الوهاب رحمه الله – أقاموا المؤتمرات بمناسبة ميلاده أو وفاته وفعلوا و فعلوا، اعتذر يومها أحد كبار علمائنا عن المشاركة بهذا الاحتفال فقال: أنا أعمل بما تقولونه من أن هذا بدعة، فإنني لن أحضره؛ لأنكم تعتبرون احتفالنا بمولد النبي ﷺ بدعة، فمن باب أولى أن نعتبر احتفالكم بميلاد أو وفاة شيخكم بدعة، هذا من باب أولى. هذه مسألة لا ينبغي أن نخوض فيها كثيراً فنحن لابد أن نعبر عن محبتنا للمصطفى ﷺ بالاحتفال بمولده، والاحتفال بمولده لا يكون بالتمايل على أصوات المنشدين فقط مع أننا نؤيد جلسات الإنشاد ونُسَرّ بها؛ لا سيما إذا كانت تحمل تلك المعاني الرقيقة التي تثير في مشاعرنا محبة النبي ﷺ والشوق إلى مثواه وزيارته عليه الصلاة والسلام فكل ذلك أمر مشروع، لكننا نريد أن نؤكد أن الاحتفال بمولده ﷺ إنما يتمثل بأمور أرجو من الجميع أن نلتزم بها، وأن نجعل هذه المناسبة منطلقاً لها.

الأمر الأول: تجديد الصلة بسيرته ﷺ وشمائله وسنته، بأن نعاود دراسة سيرة النبي ﷺ لأنفسنا ولأهلينا فنجلس في البيت ونقرأ سيرة النبي ﷺ من كتب مختصرة مبسطة لكي يعرف أبناؤنا وأهلنا في البيت من هو رسول الله ﷺ لأنهم عندما يعرفونه سوف يحبونه، وأن ندرس وإياهم، ولو كتاباً مختصراً، في شمائله: في أمانته في صدقه في رحمته في شفقته في كرمه في شجاعته في رجولته في توكله على الله، في جميل صفاته الخَلقية والخُلقية. هذا كله أمر مهم، لأن علينا أن نعرف من هو حبيبنا المصطفى ﷺ الذي هو مفتاح سعادتنا وجسر وصولنا إلى الفوز برضوان الله عزَّ وجل، **الأمر الآخر:** كثرة الصلاة عليه ﷺ، هذه المدينة مدينة مباركة إنها مدينة دمشق، ومن مظاهر البركة فيها مجالس الصلاة على النبي ﷺ فلنحي مجالس الصلاة على النبي ﷺ، ألم يقل النبي ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه: «من صلى علي مرة صلى الله تعالى بها عليه عشراً» فإذا صليت عشرا صلى الله بها عليك مائة، فإن صليت مائة صلى الله بها عليك ألفاً. وصلاة الله عليك رحمته بك وتفريجه لهمك ورفعة لمنزلتك عند الله عزَّ وجل وقبولك لديه، إذا صلى الله عزَّ وجل عليك فمعنى ذلك أنه رحمك وفرج همك ورفع عنك الكثير من الأحزان والآلام، إذا أردنا أحد مفاتيح الفرج فإن في مجالس الصلاة على النبي ﷺ أحد تلك المفاتيح ليصلي الله تعالى علينا؛ فيرفع عنا هذا البلاء الذي نعانيه. **الأمر الثالث** أن نضاعف الاهتمام والحرص على تطبيق أوامره واتباع سنته في جميع شؤوننا، في مظهرنا وفي بيوتنا وفي تربيتنا لأبنائنا وبناتنا، وفي أخلاقنا، وفي صلاتنا وعباداتنا، وفي كلامنا ومعاملاتنا وفي كل شؤوننا، فالنبي ﷺ يهدي إلى طريق مستقيم، يهدينا إلى الجنة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ إذا أردتم أن يحبكم الله فإن مفتاح محبة الله لكم ورحمته بكم وتفريج همكم أن نتبع رسول الله ﷺ فنلتزم أوامره ونجتنب نواهيه ونقتدي به، فنجعل من أخلاقه أخلاقاً لنا، ومن هديه ﷺ مصباح لطريقنا وسلوكنا وتصرفاتنا.

أيها المسلمون، يضيق المجال أن نتحدث عن تلك الحرب الشرسة التي يشنها أعداء الحق أعداء الإنسانية، من دول الاستكبار ضد رسول الله ﷺ وضد رسالته، لكني سألمح عن هذا الموضوع ولعلنا نتوسع في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى، أعداؤكم أيها المسلمون صنعوا إسلاماً قدموه للعالم، إسلاماً مشوهاً منفراً بشعاً يخيف الناظر إليه أو المتعامل معه، إسلام الإرهاب إسلام أولئك الذين يذبحون النساء والأطفال، إسلام الذين ينشرون الرعب هنا وهناك، صنعوهم ليقولوا لأبناء بلادهم المقبلين على ديننا:

هذا الإسلام الذي تريدونه، ثم يطبقون ويفبركون أعمالاً يستخدمون لها أدواتهم من أغبيائنا أو من خبثائهم وعملائهم ينفذون أعمالاً إرهابية مرعبة في بلادهم لكي يقولوا انظروا إلى خطر الإسلام، إياكم والإسلام، يربطون بين الإسلام والإرهاب، كي تبدأ الهجمة الشرسة على الإسلام بكل رموزه وبكل أشكاله في بلادهم، واليوم هناك في الغرب هجمة عنصرية غاشمة وحشية همجية ضد كل إنسان تظهر عليه سمة الإسلام، نعم رجل مسلم يركب الحافلة العامة فينزلونه لأنه مسلم، وأخرى تمشي في الشارع بحجابها فيضربونها ويرمونها أرضاً، إنه التمييز العنصري بلون جديد، مع أن الإسلام هو الذي صنع لهم الحضارة وعلمهم إياها. هل تعرفون أننا وللأسف انهزاميون حضارياً، هل تعرفون لو أن أطباءنا انسحبوا من أميركا لانهار الطب في أمريكا، هل تعرفون أن الآلاف من أبناء جلدتكم من المسلمون يخدمون المؤسسات الصحية في ألمانيا وفي أوربة وفي أميركا، ولو أنهم انسحبوا لانهارت حضارتهم، نخدم مؤسساتهم بأبنائنا ثم يداس على كرامتنا ويساء إلى قيمنا ومبادئنا، ولكن (خلا لك الجو فبيضي واصفري). نحن بضعف ثقافتنا الإسلامية وبعدم معرفتنا بحقائق ديننا استُدرِج بعض المراهقين والغوغاء منا وزُجّوا في تلك المنظمات ليكونوا أدوات لتشويه الإسلام، ثم اعتبروا حجة لهم لكي يقهروا ويضطهدوا المسلمين في بلادهم، أين هوية كثير من المسلمين في الغرب، أحدهم قال أستحي أن أقول أنا مسلم أنا عربي، إذاً متْ ذلاً ومهانة.. أجل مت ذلاً ومهانة، إذا كنت تستحي من أسباب العزة والكرامة فمت ذليلاً مهاناً، نحن نعتز بأننا لا تنحني جباهنا إلا لخالقها، نحن نعتز أننا أتباع سيدنا محمد ﷺ نحن نعتز بأننا نحن الذين صنعنا الحضارة؛ بمقدار ما نخجل بأننا تخلينا عن تلك الحضارة. نسأل الله تعالى أن يردنا إلى دينه رداً جميلاً، وأن يعيد لنا ثوب العزة باتباع هديه والاقتداء بنبيه ﷺ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فيا فوز المستغفرين

خطبة الجمعة 2015/12/11